الدرس الواحد والعشرون
تاريخ التشريع الإسلامي

❖ إن النية لا تؤثر على صحة العقد مثلاً إن أضمر الرجل أن يطلق امرأة يريد أن يعقد كتابه عليها بعد مدة فهذا لا يؤثر في صحة العقد فالفقيه له أن يبحث في الأمور الظاهر ويحاسب على مظاهر الأمور أما خفايا الأمور وبواطنها فليس له أن يحاسب أو يناقش فيها لأن الله وحده هو الذي يتولى الحساب فيها.

❖ ما موقف الشافعي من علم الكلام؟

علم الكلام هو العلم الذي يستدل به على وجود الله بعيداً عن دلالات النصوص ومستنداتها.

منهجها: الحجاج والمناقشات العقلية والقواعد الفلسفية في نطاق البرهان على العقيدة الإسلامية.

أما البرهان على ذلك بالنصوص ودلالاتها العلمية والعقلية فيسمى علم التوحيد.

الإمام الشافعي كان يكره علم الكلام والخوض فيه وهو موقف أجل العلماء المحدثين في عصره، والسبب هو أن المعتزلة هم أول من ناقشوا في أمور العقائد بناءاً على الفلسفة اليونانية وإذا قرأت شيئاً من كتبهم في أمور العقيدة تجد أكثر دلائلهم دلائل فكرية ولا يعتمدون على النصوص من قرآناً وسنةً وهي نقطة الضعف الخطيرة عندهم والسبب الرئيس في كثيراً من أخطائهم وعلى هذا قالوا: إن الإنسان هو خالق أفعال نفسه ودليلهم بهذا هو الفكر فقط والسبب أنه تخيلوا: لو قلنا أن الله هو الخالق لفعل الإنسان كما هو واضح ظاهر في النصوص لقيل إن الله يخلق المعصية للإنسان ويحسبه عليها.

إذاً كيف يخلق معصيتي في نفسي ثم يحاسبني على ذلك فلكي نتخلص من هذه المشكلة نقول أن الإنسان هو خالق أفعال نفسه والسبب هو تحميل العقل أكثر مما يجب وأكثر مما يتحمل.

نحن نعتمد على العقل ولكن في حدود قدراته فإذا ما عجز العقل هن ذلك فعليه أن يعتمد على النص والخبر.

وقد لاقوا من الشافعي الكثير لأنهم قللوا من الاعتماد على النص بل قرروا الاعتماد على القرآن فقط ولهذا وقف في وجههم وقفةً يذكرها التاريخ له ولهذا سمي (ناصر السنة) إذاً فقد كره علم الكلام لأن المعتزلة هم الذين فتحوا بابه وكان يقول في الرسالة إياكم والنظر في علم الكلام لأن الرجل إذا سئل في مسألة فقهية وأخطأ فيها كان أكثر أن يضحك منه ولو سئل في مسألة وخاض من علم الكلام وأخطأ نسب إليه بدعةً بل قد تكون كفراً وقال في بعضاً آخر:

رأيت أهل الحديث يخطأ بعضهم بعضاً

ورأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضاً

هذا هو موقف الإمام الشافعي من علم الكلام لكن هل كان جاهلاً بالأدلة العقلية وأبواب هذا العلم لا.

كان خبيراً بعلم الكلام فهو مضرب المثل في النقاش والحجاج وفي كتابه الأم أو الرسالة كثير من المسائل التي خاض بها في هذا ولكن عند الضرورة (بشير المريسي) كان مخطَئاً في العقيدة سأله عن الدليل العقلي لنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض في ذلك.

ثم إنه سئل عمن حلف بعلم الله هل هذا يمين فقال: إن قصد بعلم الله معلومات الله مقدورات الله فهذا ليس بيمين لأنه أقسم بغير الله.

إن قصد بعلم الله الصفة وهي العلم وخلق الله صفته وهي الخالقية فهذا يمين لأن صفات الله ليست عين الله (وليست عينه).

وسئل عن رؤية الإنسان أو العبد ربه يوم القيامة والمعتزلة ذكروا هذا أما الشافعي فقد تمسك بالنص { وجوهاً يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة }.

وسبب ذكرانهم أخذهم بمقتضيات العقل والتفكير العقلي الخاص بهم فقالوا: اعتماداً على التفكير الفلسفي اليوناني الرؤيا عبارة عن عملية تتلخص بين زاوية النظر المكونة من خطين ينطلقان من نقطة واحدة هي العين ينفرج الخطان حتى يكون المرئي محصوراً بينهما فالشيء المرئي محصور حتى يمكن مشاهدته والله عز وجل ليس محصوراً في مكان محدد ولا يمكن رؤيته.

الإمام الشافعي قال بل نراه فالخالق الذي جعل أعيننا هذه ضعيفةً قاصرة عن رؤية الأشياء إلا ما تدعو حاجاتنا لها يخلق فينا أعيناً أخرى أقدر على الرؤية ولا ينبغي أن نحصر قدرة الله عز وجل على هذه العيون الموجودة الآن واستدل أيضاً بالنص { كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون }، وقال لما حجب الله عز وجل أقواماً عن رؤيته وبناءاً على هذا فيوجد أقوام أخرى يرونه، فإذا كانت عقوبة الكافر منعه من الرؤيا رؤية الله عز وجل فإن أول الثواب للمؤمنين رؤية الله عز وجل.

وقال (لو علمت نفسي أني لن أرى الله يوم القيامة لما عرفته في دار الدنيا).

هذا هو سبب كره لذلك ولكن أغلب تلاميذه خاضوا فيه الإمام فخر الدين الرازي والإمام الغزالي والإمام مالك والإمام أحمد وقالوا لا فرق بين من كرهه وبين من حبذه فمن كرهه، كرهه من حيث التلذذ به وإدخال القواعد الفلسفية إلى الإسلام ومن حبذه، حبذه لأن فيه الدواء للمريض وقالوا من كان معافاً فليبتعد عنه وليحمد الله وليسله العافية أما المريض فيأخذ منه على قدر شفائه.

فالذي سمع محاضرة من متفلسف أو طالب جعله سوء أم حسن الظن لا ندري طالب فلسفة يدريها ننصحه بل يجب عليه معرفة علم الكلام حتى لا يتشكك ويتوهم في بعض المسائل وننتهي من الحديث عن الإمام الشافعي.

الإمام أحمد بن حنبل

ولد عام 164 هـ وتوفي عام 241 هـ وأجل ما عرف به وأجمعت الأمة عليه هو صلاحه وورعه وأجمع كل الناس بالاتفاق في عصره أنه مضرب المثل في التقوى والصلاح وقال بعض العلماء: لو قال أحد الناس إن الإمام أحمد من أهل الجنة لما خنس بكلامه ولما تؤول على الله لأن الناس في عصره على إجماع بذلك والله عز وجل جعل إجماع الأمة حجة.

وهنالك شيء آخر الإمام أحمد عرف محدثاً أكثر من أن يعرف فقيهاً حتى إن بضاعته في الفقه لم تكن مثل بضاعته في الحديث والسبب أن الإمام أحمد وكما ذكر ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين: أنه يرى أنه لا ينبغي لنا أن ندون غير كتاب الله وسنة رسوله والعلم الذي ينبغي للإنسان أن يشتغل به ويبحث ويتعمق فيه هو علم كتاب الله وسنة رسوله وإذا أراد الإفتاء فليقل ذلك مشافهة فربما غير رأيه ولهذا لم يكن يسمح لتلاميذه أن يكتبوا عنه غير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والله عز وجل الصدق الإمام أحمد بهذا قدر له بعد مماته تلاميذ يكتبون فتاويه (وإن كان له في بعض المسائل رأيين).

ولد الإمام أحمد في بغداد ويلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزار بن معد، وهو عربي أصيل لم تخالط العجمة نسبه قط من قبيلة شيبان نشأ نشأةً مشابهة لنشأة الشافعي توفي والده وهو صغير وتولت أمه رعايته وحفظ القرآن وهو صغير وكان يغشى مجالس العلم وتتلمذ أولاً على يد القاضي أبو يوسف وغشي مجالسه ودروسه ثم إنه لم يطب له هذه المجالس الفقهية فتحول عنها (لأن هذا الخط لم يوافق مع خط صلاحه وورعه) وخاصة بعد مقدم الشافعي وبقي يحضر مجالس الحديث.

ثم إنه أعجب بالحديث وأنفق مع ما في قلبه من تقوى وصلاح وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج من بغداد يطلب الحديث ويجوب البلاد في

رحلات ضرب بها المثل وأكثر رحلاته مشياً لفقره وكان يحيى بن معين رفيقه بهذا وفي بعض رحلاته إلى اليمن مراً بالحجاز وجد عبد بن همام صاحب السند المعروف فأخذ يحيى منه بوعد ليسمع الحديث فقال له الإمام أحمد لماذا أخذت منه موعداً هنا إنني لن أفسد نية عزمت عليها بل سأذهب إلى اليمن طلباً في مزيداً من الأجر والثواب وانتظره حتى عاد إلى اليمن نذهب إليه.

وقد حج خمس حجج وثلاثاً منها مشياً وهو أمر خاص به فقال البعض الثواب على قدر المشقة لا الحقيقة أنه كان رقيق الحال وعز عليه أن لا يحج ويطلب العلم محملاً نفسه المشقة والنصبة طلباً في الأجر والرضا من الله عز وجل والحمد لله رب العالمين.